الشكُّ الأدبي عند طه حسين من خلال كتابه"في الشعر الجاهلي"

literary doubt" in Taha Hussein's "In the Pre-Islamic Poetry"(fi alsh¡er aljahli)

د. علاوة كوسة[1] / المركز الجامعي بريكة. / الجزائر. koussaallaoua@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 13 / 02/ 2021 تاريخ القبول:10 / 06 / 2021 تاريخ النشر: 30 / 06/ 2021

ملخص

نتناول في هذا المقال قضيةَ "الشّك الأدبيّ" عند طه حسين من خلال كتابه"في الشّعر الجاهلي"، الذي أثار جدلا واسعا في الساحة النقدية العربية، حيث سنتوقف عند أسس مقاربات طه حسين للتراث الشعري العربي، ومبرراتِ هذا الشّك، والمسائلِ والقضايا المعتمد عليها في ذلك.

الكلمات المفتاحية: الشك الأدبي- طه حسين –في الشعر الجاهلي.

Abstract:

In this article, we discuss the issue of "literary doubt" in Taha Hussein's "In the Pre-Islamic Poetry"("fi alsh¡er aljahli"), which raised a great debate in the Arab critical circles. The article will shed light on the bases of Taha Hussein's approaches to the Arab poetic heritage, and the reasons for this doubt in addition to the issues and questions on which it is founded.

Keywords: *literary doubt - Taha Hussein- fi alsh¡er aljahli.*

[1] **المؤلف المرسل**: علاوة كوسة ، **الإيميل**: koussaallaoua@yahoo.fr

مقدمة:

فَتَح طه حسين نقاشا واسعا في الساحة النقدية العربية والغربية من خلال كتابه -في الشعر الجاهلي الذي ثار فيه على السائد في قراءة وتلقي النصّ الشّعري القديم بوصفه مقدَّسا ومتنزّها عن كل قراءة وتأويل، ووصل به الحد من خلال هذا المنجز النقدي إلى الشك في كثير من مكونات هذا الخطاب الشعري ومنتجيه أيضا، وكان طه حسين ينظر إلى هذا الشك في الشعر الجاهلي بوصفه طريقا إلى التنوير، وادعى من خلاله أنه لا يجب أن ننظر إلى أقوال القدامى النقدية في هذه المنجزات الشعرية نظرةَ تقديس، لأنّ الكثير من هذه الآراء في الأدب وتاريخِه تحتاج إلى مراجعات وبحث عميق.

إشكاليات مفتاحية:

- ما أسباب هذه الثورة على كتاب نقدي تناول التراث الشعري الجاهلي بشيء من النقد والمجابهة؟
- ما سياقات هذه الثورة التشكيكية المفاجئة التي أثارها طه حسين في هذا الكتاب؟
- فيمَ شكك المؤلف، وما أدواته ومنهجه ومبرراته وأسلحته النقدية في هذه الثورة؟
- هل يعد هذا المبدأ التشكيكي شكلا جديدا من أشكال البحث في تاريخ الشعر العربي القديم؟
- ما استراتيجيات طه حسين في إعادة قراءة هذا المنتَج الشعري؟
- هل كانت هذه الثورة على الشعر الجاهلي مبنية على أسس علمية ومنطلقات معرفية واضحة؟
- كيف تلقت الساحة الأدبية والنقدية هذا الكتاب: "في الشعر الجاهلي" وكيف كانت الردود عليه؟

1- التراث الأدبي واستراتيجيات المقاربة والتأويل:

إذا كان التراثُ الأدبي كنزا معرفيا ،و جملةً من الذخائر الفنيّة التي تحفظ ذاكرتَنا ، وتحقّق لنا كثيرا من الكفايات الإنسانية والاكتفاءَ الجماليَّ الذي نعيش به ومن أجله ، فإنّ التعاملَ مع هذا التراث بأدوات معاصرة يظل الأمْرَ الأخطرَ على الإطلاق، لأنه لن يتمكن من إعادة فتح خزائنه إلا مَن يمتلك منظومةً من الأدوات القرائية والإجراءات التأويلية الحادة والصارمة والدقيقة، كي لا نقتل هذا المستعادَ في أول خلوة نقدية به، وذلك نظرا للقيمة الكبيرة لهذا التراث من جهة، ولقيمة ماننتجه من إعادة قراءتنا للتراث بأدوات العصر النقدية، و"يشكل التراث بكلياته المادية والمعنوية حضورا دلاليا وكينونيا في الوعي النقدي والفلسفي الحديث، ولعل ما يميز حضوره هذا هو نوعية الأسئلة التي يثيرها بوصفه معطى حضاريا كليا"[1] ،ويتميز التراث أيضا بنوعية الأسئلة التي نطرحها عليه، واستراتيجيتنا النقدية في ذلكن من اجل فكّ كثير من مغاليقه، وإضاءة كثير من مساحاته المظلمة، الغامضة.

بالعودة إلى بعض المطارحات النقدية المعاصرة للتراث الأدبي العربي، استوقفتنا إحدى القراءات المثيرة للجدل النقدي والفكري والديني أيضا، ويتعلق الأمر بثورة الشك التي هزت بيتَ الشعرية العربية الجاهلية، والتي كان بطلها طه حسين ،من خلال كتابه "في الشعر الجاهلي" حيث أعلن الشكّ الصريح في وجود شعر جاهلي أصلا، وراح يورد المبررات في سياقات مختلفة ويزرع الشك في جغرافيا القصائد الجاهلية وتاريخ المعلقات بالخصوص، من نواحي فنية وموضوعاتية تعدت حدود المسكوت عنه، وتحدت مسلمات عمّرت لآلاف السنين في الذهنية العربية التي تقدس هذا الشعرَ الجاهليَّ أيما تقديس.

إننا إذ نتصفح كتابَ طه حسين "في الشعر الجاهلي" تستوقفنا عبارات توحي بإيمان نقدي راسخ عند طه مفاده أن ما سيتضمنه الكتاب إنما هو بحث جديد ومقاربة متفردة في تراث أدبي ظلّ مقدسا مهيبا غير متاح للقراءة والتأويل، ومن ذلك ما قاله في صدارة كتابه: "هذا نحو من البحث عن تاريخ الشعر العربي جديدٌ لم يألفه الناس عندنا من قبل، وأكاد أثق أن فريقا منهم سيلقونه ساخطين عليه، وأن فريقا آخر سيزْورون عنه ازورارا، ولكني على سخط أولئك وازورار هؤلاء أريد أن أذيع هذا البحث أو بعبارة أصح أريد أن أقيده فقد أذعته قبل اليوم حين تحدثت به إلى طلابي في الجامعة"[2]،كما لم يخْف المؤلفُ توقعه لردود الأفعال التي ستتشكل بعد اطلاع القراء على ما يتضمنه هذا الكتاب وهذا البحثُ فافتتح تقديم بحثه بعبارات دالة على ذلك ومنها "وأكاد أثق بأن فريقا منهم سيلقونه ساخطين عليه" وفعلا هذا مالقاه الكتاب المثير للجدل "في الشعر الجاهلي" عندما نشره في عام 1926 وكأنه كان يتوقع أن تثور ثائرة الأزهر على الكتاب، قاضى عدد من علماء الأزهر طه حسين إلا أن المحكمة برأته لعدم ثبوت أن رأيه قصد به الإساءة المتعمدة للدين وللقرآن" [3]

بدا طه حسين مقتنعا بحثه تمام القناعة وبمنهجه في البحث أيضا، وبالنتائج التي توصل إليها، مؤكدا انه خاض مجال ظل مسكوتا عنه، وبأنه فتح صفحات جديدة في الأدب العربي،

"ولقد اقتنعت بنتائج هذا البحث اقتناعا ما أعرف أني شعرت بمثله في تلك المواقف المختلفة التي وقفتها من تاريخ الأدب العربي" [4]، معتبرا أن منطلقاته الشكّية كانت تهدف إلى قراءات تنويرية منتجة، وليست مجرد طعنات في جسد شعري ظل حيّا محنّطا، "وانأ مطمئن أن هذا البحث وإن أسخط قوما وشق على آخرين، فسيرضي الطائفة القليلة من المستنيرين، الذين هم في حقيقة الأمر عدة المستقبل، وقوام النهضة الحديثة، وذخر الأدب الجديد"[5]

كما يرى طه أن بحثه هذا كان خيارا علميا في تناول التراث الشعري، كي لا يبقى القارئ العربي في منطقة وسطى بين تناول هذا التراث بجد أو تقبله كما هو، إذ "نحن بين اثنين: إما أن نقبل في الأدب وتاريخه ما قاله القدماء، لا نتناول ذلك من النقد إلا بهذا المقدار اليسير الذي لا يخلو منه كل بحث والذي يتيح لنا أن نقول: أخطأ الأصمعي، أو أصاب ووفق أبو عبيدة، أو لم يوفق، واهتدى الكسائي أو ضل الطريق، وإما نضع علم المتقدمين كله موضع البحث، لقد أنسيت، فلست أريد آن أقول البحث وغنما أريد أن أقول الشك" [6]

2-مبررات الشك عند طه حسين:

قبل أن يخوض طه حسين في بحثه راح يبرر لطريقته في تناول هذا التراث الشعري بمنهجه الشكي، ويؤسس لطروحاته من منطلقات جمالية في استكناه هذا التراث، ميالا إلى القراءة الحداثية له ، بعيدا عن قبول كل المسلمات النقدية التي قيلت في الشعر الجاهلي، معرجا على مَذهبين نقديين لهذا التراث، ويقصد مذهب القدامى ومذهب المحدثين، حيث "الفرق بين هذين المذهبين في البحث عظيم، فهو الفرق بين الإيمان الذي يبعث على الاطمئنان والرضا، والشك الذي يبعث على القلق والاضطراب، وينتهي في الكثير من الأحيان إلى الإنكار والجحود" [7]،ويستعرض طه مرتكزات أصحاب النظرة القديمة للشعر ويبدي عليهم بعض المآخذ في قوله:"فأما أنصار القديم فالطريق أمامهم واضحة، معبدة، والأمر عليهم سهل يسير، أليس قد أجمع القدماء من علماء الأمصار في العراق والشام وفارس ومصر والأندلس على أن طائفة كثيرة من الشعراء قد عاشت قبل الإسلام وقالت كثيرا من الشعر؟ أليس قد اجمع هؤلاء العلماء أنفسهم على أن لهؤلاء الشعراء أسماء معروفة محفوظة مضبوطة تتناقلها الناس ولا يكادون يختلفون فيها؟ أليس قد اجمع هؤلاء العلماء على أن لهؤلاء

الشعراء مقدار من القصائد والمقطوعات حفظه عنهم رواتهم وتناقله عنهم الناس حتى جاء عصر التدوين فدون في الكتب وبقي منه ما شاء الله أن يبقى لأيامنا"، ويرد عليهم بجملة من الآراء والرؤى:" وإذا كان العلماء [8]قد اجمعوا على كل هذا فرووا لنا أسماء الشعراء وضبطوها ونقلوا إلينا آثار الشعراء وفسروها فلم يبق إلا أن نأخذ عنهم ما قالوا راضين به مطمئنين إليه ، فإذا لم يكن لأحدنا بدّ من أن يبحث وينقد ويحقق فهو هذا دون أن يجاوز مذهب أنصار القديم"[9]،ويستعرض في رده على أصحاب النظرة القديمة في تناول الشعر بعرض أراء أنصار النظرة الجديدة لهذا الموروث: "أما أنصار الجديد فالطريق أمامهم معوجة ملتوية، تقوم فيها عقاب لا تكاد تحصى وهم لا يكادون يمضون إلا غي أناة وريثٍ، هما إلى البطء أقرب منهما إلى السرعة، ذلك أنهم لا يأخذون أنفسهم بإيمان ولا اطمئنان أو هم لم يرزقوا هذا الإيمان، والاطمئنان فقد خلق الله لهم عقولا تجد من الشك لذة وفي القلق والاضطراب رضا وهم لا يريدون أن يخطوا في تاريخ الأدب خطوة حتى يتبنوا موضعها ،وسواء عليهم وافقوا القدماءَ وأنصارَ القديم أم كان بينهم وبينهم أشد الخلاف، هم لا يطمئنون إلى ما قال القدماء وإنما يلقون بالتحفظ والشك" [10]

يبدو التحريض النقدي واضحا في مقدمة الكتاب، حيث لا يكتفي المؤلف بعرض رؤية المحدثين إلى التراث الشعري الجاهلي، بل يشجعهم على إعادة الخوض فيه دون الإيمان بمسلمات النقاد القدامى الذين تناولوه بتقديس زائد، و"لعل أشد ما يملكهم الشك حين يجدون من القدماء ثقة واطمئنانا ،هم يريدون أن يدرسوا مسالة الشعر الجاهلي، فيتجاهلون إجماعَ القدماء على ما أجمعوا عليه، ويتساءلون :أهناك شعر جاهلي؟ فإن كان هناك شعر جاهلي، فما السبيل إلى معرفته؟ وما هو؟ وما مقداره؟ وبمَ يمتاز من غيره؟ ويمضون في طائفة من الأسئلة يحتاج حلها إلى رويّة وأناة، وإلى جهود الجماعات العلمية لا إلى جهود الأفراد" [11]، وينتقد طه حسين أيضا الباحثين الجاهلين بتاريخ العرب، ويرى أنه لا بد للباحث في الشعرية العربية القديمة ان يكون عارفا بكل السياقات المحيطة بهذا النص الشعري القديم، لأنها أوجدته وأثرت فيه وفيه من محمولاتها الكثير، إذْ "هم لا يعرفون أن العرب ينقسمون إلى باقية وبائدة، وعاربة ومستعربة، ولا أن لأولئك من جرهم وهؤلاء من ولد إسماعيل، ولا أنّ امرأ القيس وطرفة وابن كلثوم قالوا هذه المطولات، ولكنهم يعرفون أن القدماء كانوا يرون ذلك، ويريدون أن يستبينوا أكان القدماء مصيبين أم مخطئين؟"[12]

3-الحصانةُ الفنية في ثورة الشّك عند طه:

يتحصن طه حسين في ثورة شكه بحصون فنية بريئة خالصة كما يبدي للقارئ أولَ مرة "وأول شيء أفاجئك به في هذا الحديث هو أني شككت في قيمة الشعر الجاهلي، وألححت في الشك أو قل ألح علي الشك، فأخذت أبحث وأفكر وأقرأ وأتدبر، حتى انتهى بي هذا كله إلى شيء إلا يكن يقينا فهو أقرب من اليقين، ذلك أن الكثرة المطلقة مما نسميه شعرا جاهليا ليست من الجاهلية في شيء وإنما هي منتحلة مختلقة بعد ظهور الإسلام، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين" [13]،ويتضح من هذه الأحكام أنه لم يجد الروحَ الجاهلية مبثوثة في متون الشعر الجاهلي، وأنها كانت أقربَ إلى الروح الإسلامية منها إلى روح العصر الجاهلي من حيثُ أهواؤها وعواطفها ،ومن ثمة كانت انطلاقة طه الشكية في هذا الصرح الشعري العريق، منتهجا الشكّ الديكارتي،" في هذا الكتاب طبق طه حسين على الشعر الجاهلي المنهج الفلسفي- منهج الشك –الذي استحدثه ديكارت للبحث عن حقائق الأشياء، وخلص إلى استنتاجاته وتحليلاته أن الشعر الجاهلي منحول –أي لا ينتمي لقائله-وأنه كتب بعد الإسلام ونسب لشعراء ما قبل الإسلام، وبفضل هذا المنهج وصل إلى نتيجة منطقية زعزعت اليقين الذي كان يحوم حول الشعر الجاهلي" [14]

لا يخفى على قارئ كتاب طه "في الشعر الجاهلي "،الشك في الصورة الأدبية للأدب الجاهلي، وهو مرتكز فني آخر جعله طه مدخلا إلى بواطن هذا التراث لحاجة في نقده وبحثه، فيقول: "وأكاد لا أشك في أن ما تبقى من الشعر الجاهلي الصحيح قليل جدا، لا يمثل شيئا ولا يدل على شيء ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي، وأنا أقدر النتائج الخطرة لهذه النظرية، ولكنني مع ذلك لا أتردد في إثباتها وإذاعتها، ولا أضعف على أن أعلن إليك وإلى غيرك من القراء أن ما تقرؤه على أنه شعر امرئ أو طرفة أو ابن كلثوم، أو عنترة ليس من هؤلاء الناس في شيء وإنما هو انتحال الرواة أو اختلاف الأعراب أو صنعة النحاة أو تكلف القصّاص أو اختراع المفسرين والمحدثين والمتكلمين"[15]،ويتعدى شكه الصورة الأدبية لهذا الشعر، إلى الطعن في كل من يعتمد على هذا التراث الشعري في توصيف الصورة الأدبية الحقيقية الصحيحة لهذا العصر.

يطرح طه حسين أيضا في مقدمة هذا الكتاب بدائل أخرى للتعرف على الحياة في العصر الجاهلي بعدما نفى عن الشعر مقدرته على ذلك بحكم انتحاله وزيفه، ومن هذه البدائل والأدلة المتاحة للتعرف على الحياة في العصر الجاهلي، القرآن، التاريخ أمِ الأسطورة؟

إذ "نستطيع أن نتصوره تصورا واضحا قويا صحيحا، ولكن بشرط ألا تعتمد على الشعر، بل على القرآن من ناحية، والتاريخ والأساطير من ناحية أخرى"[16]

4-المسائل التي اعتمدها طه في تبرير نظرية الشك:

تطرق طه حسين في هذا الكتاب إلى مباحث سياقية محيطة ببيئة الشعر الجاهلي ومنها:

أ-الفرس والشام والعراق ومصر بعد الفتح وعلاقتها باللغة.

ب-نشأة العلوم الدينية واللغوية وعلاقتها بالأدب واللغة.

ج-اليهود في بلاد العرب قبل الإسلام وبعده وعلاقة اليهود بالأدب العربي.

د-المسيحية وانتشارها في بلاد العرب قبل الإسلام وتأثيرها في حياة العرب العقلية والاجتماعية والاقتصادية والأدبية وعلاقة كل هذا بالأدب.

هـ-مؤثرات سياسية خارجية عملت في حياة العرب قبل الإسلام وأثرت في الأدب العربي

هذه المباحث الخمسة تنتهي كلها إلى تلك النظرية التي قدمها وهي أن كثرة الشعر الجاهلي ليست شعرا جاهليا.

ويقول عن هذه المباحث:

"لن أقف عند هذه المباحث لأنني أقف عندها فيما بيني وبين نفسي، بل جاوزتها واري دان أجاوزها معك إلى نحو آخر من البحث أظنه أقوى دلالة وأنهض حجة من المباحث الماضية كلها، ذلك هو المبحث الفني واللغوي، فسينتهي بنا هذا المبحث إلى أن هذا الشعر الذي ينسب إلى امرئ القيس أو إلى الأعشى أو إلى غيرهما من الشعراء الجاهليين، لا يمكن من الوجهة اللغوية والفنية أن يكون لهؤلاء الشعراء ولا أن يكون قد قيل وأذيع قبل أن يظهر القرآن" [17]

وبعد عرضه لهذه المباحث السياقية حول الشعر الجاهلي راح يخوض في المنهج الديكارتي المشكاك،" والواقع أن استيعابنا للتراث يستدعي تحديد الرؤية والمنهج اللذين يتحدد في ضوئهما علاقتنا بهذا التراث ووعينا له وفهمنا إياه"[18]،و" في هذا الكتاب طبق طه حسين على الشعر الجاهلي المنهج الفلسفي- منهج الشك –الذي استحدثه ديكارت للبحث عن حقائق الأشياء، وخلص إلى استنتاجاته وتحليلاته ان الشعر الجاهلي منحول (أي لا ينتمي لقائله)وأنه كتب بعد الإسلام ونسب لشعراء ما قبل الإسلام، وبفضل هذا المنهج وصل إلى نتيجة منطقية زعزعت اليقين الذي كان يحوم حول الشعر الجاهلي" [19]،ولم يخفِ طه تأثره بهذا المنهج وبصاحبه، ورأى فيه المنهج الأنسب لتناول هذا التراث الشعري الزاخر، "سأسألك في هذا النحو من البحث مسلك المحدثين من أصحاب العلم والفلسفة فيما يتناولونه من العلم والفلسفة، أريد أن اصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه(ديكارت)للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث والناس جميعا يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شكل كان يعلمه من قبل أن يستقبل موضوع بحثه، خالي الذهن مما قيل فيه خلوا تاما" [20]

5-تطبيق المنهج الديكارتي/الخلاص من المقومات :

يرى طه في منهج الشك الديكارتي خلاصا من كثير من المعيقات لروح البحث العلمي ونقد الشعر الجاهلي بصيغ منتِجة للمعرفة والحقيقة، ومن هذه القيم التي يرى ضرورة التخلص منها وولوج البحث دون قيودها : وهم القومية و سلطة الدين و وحدود التاريخ، وكل الأحكام المسبقة التي توجه البحث وتعرقل النقد العلمي الجاد، "ولنتقبل هذا الأدب وتاريخَه وقد برأنا أنفسنا من كل ما قيل فيهما من قبل، وخلصنا من كل هذه الأغلال الكثيرة الثقيلة التي تأخذ أيدينا وأرجلنا ورؤوسنا فتحول بيننا وبين الحركة الجسمية الحرة وتحول بيننا وبين الحركة العقلية الحرة أيضا، نعم يجب أن نستقبل البحث عن الأدب العربي وتاريخه، أن ننسى قوميتنا وكل مشخصاتها وأن ننسى ديننا وكل ما يتصل به وأن ننسى ما يضاد هذه القومية وما يضاد هذا الدين، يجب ألا نتقيد بشيء ولا ندعن لشيء إلا مناهج البحث العلمي الصحيح" [21]،كما أنّ إلغاء الدين والقومية منهج شكي بامتياز في نظر طه حسين، "إذا لم ننس قوميتنا وديننا وما يتصل بهما فسنضطر إلى المحاباة وإرضاء العواطف(...)وهل فعل العلماء غير هذا وهل أفسد علم القدماء شيء غير هذا"[22]،وذلك - حسب رأيه –لأن المسلمين بحاثة لا يمتون إلى العلم بصلة وأعماهم دينهم عن الولوج إلى جواهر الأشياء بروح علمية تجعلهم قريبين من ألباب النصوص المدروسة والقضايا المطروحة للنقاش، إذ "كان قدماء المسلمين مخلصين في حب الإسلام فأخضعوا كل شيء لهذا الإسلام وحبهم إياه، ولم يعرضوا لمبحث علمي ولا لفصل من فصول الأدب أو لون من ألوان الفن إلا من حيث إنه يؤيد الإسلام ويعزه ويعلي كلمته، فما لاءم مذهبهم هذا أخذوه، وما نافره انصرفوا عنه انصرافا" [23]

لقد أودى المنهج الديكارتي المشكاكُ بطه حسين إلى الشك في الشعر الجاهلي وفي كل السياقات المحيطة به، وورطه في بعض القضايا الموازية له والمصاحبة سواء من قريب أو بعيد، فراح يستعمل هذا المنهج معولا لهدم وتغييب كثير مما كان يرى الأوائل بقدسيتها كالتاريخ والدين والقومية الجارفة، وهو ما يكشف ربما لأن طه لم يكن متحكما في أصول المنهج وإجراءاته، لأن أسلوب الشك" وهو أسلوب ماكر من أساليب الغزو الثقافي أريد به إدارة الأبحاث الأدبية والعلمية والتاريخية في دائرة الأبحاث الإدارية، والتشكيك والتهكم والسخرية، بحيث يرى القارئُ انه إزاء جو مغرق في الاستهانة والاحتقار، لكل ما يتناوله" [24]،خاصة عندما تعلق الأمر بالأمور العقدية، ومن ذلك ما تحدث عنه "أنور الجنيدي" وما أورده من أقوال لطه حسين في هذا

الكتاب "يقول الدكتور طه حسين في بحث له العبارة التالية"أخضعت للشك (دون أن أمس الدين) بعضَ المعتقدات التي ورد ذكرها في القرآن وأحاديث الرسول'.،أي أسلوب في المكر والتضليل أبعد من هذا حين يعترف بأنه أخضع بعض المعتقدات التي ورد ذكرها في القرآن للشك؟ وكيف انه حين فعل ذلك لم يمس الدين الذي هو مصدر الاعتقاد، والذي هو منطلق كل ما ورد في القرآن[25]، ولا مبرر لهذا التطرف النقدي في طابعه الشكي عند طه حسين سوى تأثره الأعمى بديكارت، ونشعر بهذا التماهي للمؤلف في إعلانه المنهجَ الديكارتيَّ الأجدر والأحق بالدراسات المعاصرة في كل الميادين، "فأنت ترى أن منهج ديكارت هذا ليس خصبا في العلم والفلسفة والأدب فحسب، وإنما هو خصب في الأخلاق والحياة الاجتماعية أيضا"26ولم يتوانَ 'أنور الجنيدي' في الرد على هذا العمى المنهجي لطه حسين، فراح يحكم على المنهج الديكارتي في استعماله السيء للمؤلف، واصدر حكمه القاسي عليه ،"قد حاول الدكتور طه حسين أن يعتمد على ما أسماه مذهب ديكارت في إشاعة هذا الأسلوب، ولكن يبدو انه لم يكن يصدر عن أساس علمي أصيل، وإنما هي محاولة مظهرية خادعة، لخلق أرضية لإثارة الشبهات، حول كل القيم والعقائد والمفاهيم، التي يقوم عليها الأدب العربي، بل الفكر الإسلامي نفسه، وقد ركز الدكتور طه في اعتماد ما أسماه مذهب ديكارت على اعتقاد أن أحدا لن يناقشه في هذه الآراء" [26]،كما أورد أنور الجنيدي بعض آراء المعاصرين لطه حسين ممن رأوه الناقد المارق المتطرف الهادم للتراث الشعري الجاهلي ومن هؤلاء:

أ-رأي عمر فروخ في شك طه حسين:

"إن من أبرز معالم أدبه تردده بين المفهوم وغير المفهوم والمنحول والثابت، والممكن وغير الممكن، ولم تره في كتاب إلا داعية للشك ولا في مقالة إلا آخذا بالظن، لم يثبت في حياته شيئا، بل كان ينفي ما يثبت نفسه بنفسه وهو يكتب(لعل. ربما) ويقول رأيه على التأويل والدوران والتغيير" [27]

ب-رأي العقاد:

"هناك النقيضة الظاهرة في أسلوبه بين الحزم والتشكيك، إن أخصب ألفاظ للشك، في كلامه من أمثال: ازعم، قد أزعم، ولعله يكون، ولعله لا يكون، ربما ضحكتن ربما بكيت، وتحسبه في الشك لا يستقر على شيء" [28]

وهما رأيان حادان صارمان ضد من كان يعتقد انه عميد الأدب العربي فإذا به يهدم أسسه ويعكر صفاء بداياته،إذ ظل طه حسين طوال حياته مترددا مشكاكا لا يستقر على رأي، كما يرى معاصراه عمر فروخ والعقاد.

6-بين القرآن والشّعر/الشاهد والمشهود عليه:[29]

لقد نقلنا طه حسين من حديثه عن الشك الكبير في الشعر الجاهلي، وقناعته بأن ما نتدارسه في هذا العصر من شعر نعتقده جاهليا ما هو إلا نماذج منتحلة مكذوبة لا تمت إلى الحياة الجاهلية بصلة أو نسق أو ملمح، انتقل بنا إلى قناعة أخرى وهي أنه لا يمكن لنا أن نستشهد بهذا الشعر الموضوع المنتحل على تفسير القرآن وتأويل الحديث، من منطلق أن ما يؤسس على باطل فهو باطل، فلا يمكن في رأيه الاستشهاد بشعر مكذوب على نص سماوي وحديث نبوي، كما جاء في كتابه: "وسينتهي بنا هذا البحث إلى نتيجة غريبة، وهي أنه لا ينبغي أن يستشهد بهذا الشعر على تفسير القرآن وتأويل الحديث، وإنما ينبغي أن يستشهد بالقرآن

والحديث على تفسير هذا الشعر وتأويله، أريد أن أقول إن هذه الأشعار لا تثبت شيئا ولا تدل على شيء ولا ينبغي أن تتخذ وسيلة إلى ما اتخذت إليه من علم القرآن والحديث، فهي إنما تُكلفت واختُرعت اختراعا يستشهد بها العلماء على ما كانوا يريدون أن يستشهدوا عليه" [30]، ويقرّ طه حسين أن محاولة تتبع حيثيات الحياة الجاهلية لا يكون إلا من خلال النص القرآني لا من خلال الشعر الجاهلي، لأن روح الجاهلية مفقودة في ما نعتقد بأنه شعر جاهلي "مرآة الحياة الجاهلية يجب أن تلتمس في القرآن لا في الشعر الجاهلي"[31]، كما"لا أنكر الحياة الجاهلية ولكن أنكر أن يمثلها هذا الشعر الذي يسمونه الشعر الجاهلي فإذا أردت أن أدرس الحياة الجاهلية فلست أسلك إليها طريق امرئ القيس والنابغة والأعشى وإنما اسلك إليها طريقا أخرى وادرسها في نص لا سبيل إلى الشك في صحته،، أدرسها في القرآن، فالقرآن أصدق مرآة للعصر الجاهلي، ونص القرآن ثابت لا سبيل إلى الشك فيه"[32]

7-الشعر الجاهلي لا يعكس تدين الجاهليين:

لا يفوت طه حسين إنكاره للشعر الجاهلي واستحالة الاستدلال به على معرفة الحياة الجاهلية وروحها، بل يتجاوز ذلك إلى الإقرار بأن هذا الشعر لا يمكن أن نستدل به على الحياة الدينية في العصر الجاهلي ، لأنه يكاد يخلو من مظاهر تدين الإنسان الجاهلي الذي كانت له عقائد واهتمامات وتمظهرات دينية نكاد نفتقدها في الشعر الجاهلي الذي نعتقده كذلك، "ما أبعد الفرق بين نتيجة البحث عن الحياة الجاهلية في هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين والبحث عنها في القرآن.. فأما هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين فيظهر لنا حياة غامضة جافة بريئة أو كالبريئة من الشعور الديني القوي والعاطفة الدينية المتسلطة على النفس والمسيطرة على الحياة العلمية، وإلا فأين تجد شيئا من هذا في شعر امرئ القيس أو طرفة أو عنترة؟

أوليس عجيبا أن يعجز الشعر الجاهلي كله عن تصوير الحياة الدينية للجاهليينّ.. وأما القرآن فيمثل لنا شيئا آخر يمثل لنا حياة دينية قوية تدعو أهلها إلى أن يجادلوا عنها ما وسعهم الجدال"[33]، والقارئ المتعمق في ما وصلنا من شعر جاهلي لا يكاد فعلا أن يعثر على إشارات واضحة عميقة للوجه الديني للإنسان الجاهلي، فالذي أبداه في تصوير الذات الجاهلية والفضاء الأهوائي الرهيب في لذلك العصر، كيف يعجز أو يغيب تصوير الحياة الدينية ؟وهو ما يجعل فرضية طه حسين في هذه الجزئية قريبة من الحقيقة وتجيز له بشكل ما التشكيك في هذا الإرث الشعري الرهيب.

8-الشعر الجاهلي و وإشكالية اللغة:

بعد أن أنكر طه حسين استحالة الاستشهاد بالشعر الجاهلي على الحياة الدينية في العصر الجاهلي، راح ينكر أيضا بان نستدل على اللغة الجاهلية انطلاقا من هذا الشعر المنتحل، وذلك أنه لا يمثل الحقيقة اللغوية للإنسان الجاهلي، "على أن هناك شيئا آخرَ يحظر علينا التسليم بصحة الكثرة المطلقة من هذا الشعر الجاهلي ولعله أبلغ في إثبات ما نذهب إليه فهذا الشعر الذي رأينا لا يمثل الحياة الدينية والعقلية للعرب، الجاهليين بعيد كل البعد عن أن يمثل اللغة العربية في العصر الذي يزعم الرواة أنه قيل فيه، والأمر يحتاج هنا إلى شيء من الروية والأناة، فنحن هنا ذكرنا اللغة العربية نريد بها معناها الدقيق المحدود الذي نجده في المعاجم حين نبحث فيها عن لفظ اللغة ما معناه نريد بها الألفاظ من حيث هي ألفاظ تدل على معانيها تستعمل حقيقة مرة ومجازا مرة أخرى، وتتطور ملائمة لمقتضيات الحياة التي يحياها أصحاب هذه اللغة فنقول إن هذا الشعر الجاهلي لا يمثل اللغة الجاهلية"[34]،كما كان للهجات في الجاهلية أثرها على العروض،

وهو دليل إيقاعي يعزز الفرضيات والقناعات التي تحدث عنها طه في هذا الكتاب المشكاك، "اختلاف اللهجات له أثره لطبيعي اللازم في الشعر، في أوزانه وتقاطيعه وبحوره وقوافيه بوجه عام، ولسنا نستطيع أن نفهم كيف استقامت أوزان الشعر وبحوره وقوافيه كما دوّنها الخليل لقبائل العرب كلها على ما كان بينها من تباين اللغات واختلاف اللهجات"[35]، وليس هذا شكا في النظرية الخليلية الدقيقة المعجزة، بل هو شك في الشعر الجاهلي الذي كان المدونة التي اشتغل عليها الخليل في ابتكار علم العروض.

9-أسباب انتحال الشعر كما يراها طه حسين:

قبل تحدثه عن أسباب انتحال الشعر الجاهلي، يتطرق طه حسين إلى تاريخ الانتحال لدى الأمم الأخرى مبينا أن هذه الظاهرة لا تقتصر على الأمة العربية فقط، "فلن تكون الأمة العربية أول أمة انتحل فيها الشعر انتحالا وحمل على قدمائها كذبا وزورا وإنما انتحل الشعر في الأمة اليونانية والرومانية من قبل وحمل على القدماء من شعرائها وانخدع به الناس وآمنوا له، ونشأت عن هذا الانخداع والإيمان سنة أدبية توارثها الناس مطمئنين إليها حتى هذا العصر الحديث ،حتى استطاع النقاد من أصحاب التاريخ والأدب واللغة والفلسفة أن يردوا الأشياء إلى أصولها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا" [36]،ومن الأسباب المباشرة لانتحال الشعر، ما ارتبط بالجانب الديني، أي إن هناك علاقة بين الدين وانتحال الشعر لأنّ" الشعراء ينتحلون الشعر وينسبونه للجاهلين وكأنهم كانوا يتنبؤون بمجيء النبي، خدمة للدين" فكل هذا الانتحال في بعض أطواره يقصد به إلى إثبات صحة النبوة وصدق النبي وكان هذا النوع موجها إلى الناس عامة(...)وفي سيرة ابن هشام وغيرها من كتب التاريخ والسير ضروب كثيرة من هذا النوع الكثير"[37]، فإذا كان المنتحلون نسبوا الشعر للجن فكيف لا ينسبونه لبشر؟ ومن ذلك حين "رووا شعرا قالته الجن، تفتخر فيه بقتل سعد بن عبادة:

قد قتلنا سيدَ الخزرج سعدَ بنَ عباده - ورميناه بسهمين ولم نخطئ فؤادَه

وكذلك قالت الجن شعرا رثت فيه عمر بن الخطاب:

أبعد قتيل في المدينة أظلمت...له الأرض تهتز العضاه بأسوق

جزى الله خيرا من إمام وباركت...يد الله في ذاك الأديم الممزق"[38]

لعل أخطر ما سببه الشكُّ في الشعر الجاهلي ليس المنتج الشعري في حدّ ذاته، بل كل ما تلا هذا المنتجَ بالدرس والنقد، أي إنه إذا كان الشعر الجاهلي منتحلا كما قال طه حسين فإن كل الكتب والمصنفات التي تناولته وصنفته طبقات ومراتب وتدارست مضامينه وفنياته قد هز أركانها الشكُّ ونسفها طه حسين في جرة قلم ولحظة شكّ، ومن ذلك تعجب طع حسين بل سخريته من مجهودات جبارة قام بها نقاد الشعر الجاهلي القدامى، ومنهم ابن سلام الجمحي، "ولعل من أوضح الأمثلة على انخداع ابن سلام لعن هذا الشعر المنتحل هذه الطائفة التي رواها على أنها أقدم ما قالته العرب ممن الشعر الصحيح، والتي يضاف بعضها إلى جذيمة الأبرش، وبعضها إلى زهير بن جناب، وبعضها إلى العنبر بن تميم، وبعضها إلى أعصر بن سعد بن قيس، وكل هذا الشعر إذا نظرت فيه سخيف سقيم ظاهر التكلف بيّن الصنعة، واضح جدا أن راويا من الرواة أو قاصا من القصاص تكلفه"[39]، كما يرى طه أن للشعوبية الأثر البالغ في ظاهرة انتحال الشعر الجاهلي، بوصف هذه النعرات مبعثا للتسلح بأدوات مجابهة الآخر، فكان الشعر الأداةَ الأساس في هذا الجدل والحوار بين الفرق والطوائف، "أما نحن فنعتقد أن هؤلاء الشعوبية قد انتحلوا أخبارا وأشعارا، كثيرة وأضافوها إلى الجاهليين، والإسلاميين" [40]،ويقسم طه حسين رواةَ الشعر الجاهلي إلى قسمين،" وهم بين اثنين:إما أن يكونوا من العرب،

فهم متأثرون بما كان يتأثر به العرب، وإما أن يكونوا من الموالي، فهم متأثرون بما يتأثر به الموالي(...) ولعل أهم هذه المؤثرات التي عبثت بالأدب العربي وجعلت حظه من الهزل عظيما: مجون الرواة وإسرافهم في اللهو والعبث وانصرافهم عن أصول الدين وقواعد الأخلاق، إلى ما يأباه الدين وتنكره الأخلاق" [41]

هناك نقاط ومرتكزات كثيرة اتخذ منها طه حسين مبررات لثورة الشك في الشعر الجاهلي، وهو ما جعله يخلص في الأخير إلى ما بين بأنه سيثير الكثير من الردود بين الرفض والسخط، ومن هذه القرارات والشكوك والظنون قوله: "نظن أن أنصار القديم لا يطمعون مثلنا في أن نغير لهم حقائق الأشياء أوان نسمي الحقائق بغير أسمائها، لنبلغ رضاهم ونتجنب سخطهم،(...)ولن نستطيع أن نعترف بأن ما يروى من سيرة هؤلاء، الشعراء الجاهليين وما يضاف إليهم من الشعر يمكن الاطمئنان إليه أو الثقة به"[42]، حيث بدأ طه حسين كتابه بهذه العبارة' وأكاد أثق بأن فريقا منهم سيلقونه ساخطين عليه' وفعلا هذا مالقاه الكتاب المثير للجدل 'في الشعر الجاهلي' عندما نشره في عام 1926 وكأنه كان يتوقع أن تثور ثائرة الأزهر على الكتاب، قاضى عدد من علماء الأزهر طه حسين إلا أن المحكمة برأته لعدم ثبوت أن رأيه قصد به الإساءة المتعمدة للدين وللقرآن" [43] ،ففي هذا الكتاب طبق طه حسين على الشعر الجاهلي المنهج الفلسفي- منهج الشك –الذي استحدثه ديكارت للبحث عن حقائق الأشياء، وخلص إلى استنتاجاته وتحليلاته أن الشعر الجاهلي منحول –أي لا ينتمي لقائله-وأنه كتب بعد الإسلام ونسب لشعراء ما قبل الإسلام، وبفضل هذا المنهج وصل إلى نتيجة منطقية زعزعت اليقين الذي كان يحوم حول الشعر الجاهلي[44].

10- خاتمة:

-يعدَّ كتاب طه حسين "في الشعر الجاهلي" هزةّ كبرى في المشهد النقدي العربي الحديث، لما أحدثه من جدل علمي في مباحث تتعلق بالشعر الجاهلي.

- لم يكن شكّ طه في المدونة الشعرية الجاهلية ذا قيمة من حيث الأساليب في المعالجة أو أسبقيته في تطبيقات المنهج الديكارتي الشكّي، إنما أهميته وخطورته من حيث جرأته في محاولة نسف إرث شعري عمره آلاف السنين، وقداسته ذات جذور ممتدة في المتون النقدية العربية عبر التاريخ.

- آمن طه حسين منذ البداية بأن بحثه سيلقى من الناقمين الكثير ومن المؤيدين الكثير وأن كلا الفئتين في صالحه لأن البحث القيم يلقى تقبلا كبيرا مهما اختلفت أحكامه.

- يرى طه حسين أن الشعر الجاهلي كان منتحلا بصفة كبيرة، وانه مجرد نصوص مقولة منتحلة من عصر غير العصر الجاهلي.

- يرى طه أن هناك أسبابا كثيرة لظاهرة الانتحال، ولعل أهمها ما كان ذا بواعث دينية شعوبية، وكان أصحاب هذه الالتفاتات إلى الانتحال يرون في الشعر أدوات يجابهون بها نظراءهم وأعداءهم وغرماءهم، فاصطنعوا الشعر وقولوا غيرهم واستعاروه منهم وتصرفوا فيه ليخدم مقولاتهم وأغراضهم.

- لم يعكس ما يسمى بالشعر الجاهلي الحياةَ الاجتماعيةَ والثقافية والدينية الجاهلية الحقيقية ولا يمكن أن نتكئ على هذه التركة الشعرية المنتحلة للتدليل على مظاهر الحياة الجاهلية أبدا كما يرى طه حسين، وأن النص الوحيد الذي نعتمده في مقاربة الحياة الجاهلية هو النص القرآني فقط.

-يرى طه حسين أنه لا يمكن الاستشهاد على العصر الجاهلي بالشعر المنتحل وأن النص القرآني هو من يعتمد عليه في معرفة الحياة الجاهلية وكامل مناحيها.

-يعد بحثُ طه حسين غوصا عميقا في المدونة الشعرية العربية، وتوغلا جريئا في التراث ولكن بمنهج خطير يتجاوز المقدرة العلمية والكفاءة الإجرائية لطه حسين وذلك ما عبر عنه كثير العارفين بالمنهج الديكارتي الذي كان أعتى من أن يهضمه طه ويطبقه على تراث شعري غني وغزير وكثير المغاليق.

-يتطلب منا البحث في ثورة الشك عند طه حسين التوقف عند بعض الأسئلة العميقة التي طرحها المؤلف، والتركيز على المقولات النقدية التي قارب بها طه التراث الشعري الجاهلي، بعيدا عن أي تعصب ديني وفكري، وتصفية حسابات قرائية لهذا التراث، ويحتاج هذا منا قراءات مختلفة متأنية لكتاب "في الشعر الجاهلي" لطه حسين.

الإحالات والهوامش:

[1] خيرة حمر العين :جدل الحداثة في نقد الشعر العربي،منشورات اتحاد الكتاب العرب،1996،ص 62

[2] طه حسين:في الشعر الجاهلي،- الهيئة المصرية العامة للكتاب،1926 ص1

[3] نهى سيلين الزبرقان،ملخص كتاب في الشعر الجاهلي لعميد الأدب العربي طه حسين،موقع الحوار المتمدن، العدد31،3532-10-2011.

[4] طه حسين:المصدر السابق، ص1.

[5] المصدر نفسه والصفحة نفسها.

[6] المصدر نفسه والصفحة نفسها

[7] المصدر نفسه،ص2

[8] المصدر نفسه، ص3

[9] لمصدر نفسه،ص 2

[10] المصدر نفسه والصفحة نفسها

[11] المصدر نفسه،ص3

[12] المصدر نفسه،والصفحة نفسها.

[13] المصدر نفسه والصفحة نفسها

[14] نهى سيلين الزبرقان،ملخص كتاب في الشعر الجاهلي لعميد الأدب العربي طه حسين،موقع الحوار المتمدننالعدد31،3532-10-2011.

[15] طه حسين : المصدر السابق،ص 3-4

[16] المصدر نفسه،ص4

[17] المصدر نفسه والصفحة نفسها.

[18] خيرة حمر العين:المرجع السابق،ص64

[19] نهى سيلين الزبرقان،ملخص كتاب في الشعر الجاهلي لعميد الأدب العربي طه حسين،موقع الحوار المتمدننالعدد31،3532-10-2011

[20] طه حسين: المصدر السابق،ص 5

[21] المصدر نفسه والصفحة نفسها

[22] المصدر نفسه والصفحة نفسها

[23] المصدر نفسه والصفحة نفسها

[24] أنور الجندي:خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريات النقد الأدبي الحديث ،الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة 1988، ص85.

[25] المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[26] طه حسين: المصدر السابق، ص6

[27] أنور الجنيدي: المرجع السابق،ص86

[28] المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[29] المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[30] طه حسين: المصدر السابق،ص 4

[31] المصدر نفسه،ص6

[32] المصدر نفسه والصفحة نفسها

[33] المصدر نفسه والصفحة نفسها

[34] المصدر نفسه، ص9

[35] لمصدر نفسه، ص14

[36] المصدر نفسه،ص18

[37] المصدر نفسه،ص32

[38] المصدر نفسه،ص33

[39] المصدر نفسه، ص49

[40] المصدر نفسه، ص50

[41] المصدر نفسه، ص 55

[42] المصدر نفسه، ص 58

[43] نهى سيلين الزبرقان،ملخص كتاب في الشعر الجاهلي لعميد الأدب العربي طه حسين،موقع الحوار المتمدننالعدد31،3532-10-2011.

[44] المرجع نفسه.

قائمة المصادر والمراجع:

[1]- أنور الجندي:خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريات النقد الأدبي الحديث ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1988،

2- خيرة حمر العين :جدل الحداثة في نقد الشعر العربي،منشورات اتحاد الكتاب العرب،1996

[3]- طه حسين:في الشعر الجاهلي،- الهيئة المصرية العامة للكتاب،1926 .

[4]- نهى سيلين الزبرقان،ملخص كتاب في الشعر الجاهلي لعميد الأدب العربي طه حسين،موقع الحوار المتمدن، العدد31،32،35.